JOURNAL OF HADITH STUDIES

Vol. 5 No. 2. (December 2020)
eISSN: 2550-1488
journalofhadith.usim.edu.my

مناهج تأويل أحاديث الفتن بين الاعتدال والتطرف: تحليل لبعض التأويلات السياسية لأحاديث الفتنة

(Methods of Interpretation of Discord Hadiths Between Moderation and Extremism: An Analysis of Selected Political Interpretations)

Abdul Rahman Hussein[1], Gapur Oziev[2]
[1]Fakulti Pengajian Quran Sunnah, Universiti Sains Islam Malaysia, [2]International Islamic University Malaysia

Abstract
It is well known and agreed upon, that many of Hadiths related to the preceding events of the Day of Judgment could be interpreted in a way that is consistent with a sectarian circumstances or spatiotemporal facts. For instance, Hadith that narrated by Bukhary: "Day of Judgment will not rise until tow sects, off one claim, have fought" was interpreted with deferent approaches, that complicated the issue and created confusion among younger generation who were quickly driven by ostensible interpretation, and their hopes and dreams were attached to a fanciful Islamic caliphate created by political interests. Today, Islamic countries from far east to north of Africa, are facing a great ordeal. This ordeal is not derived from individuals or Islamic groups and its methods of Da'wah, but is relevant to an approach interprets the prophetic traditions In order to conform with the foundations of some organizations. We have to expose the falsehood of these interpretations and to show their delusions, as al-Gazali did in his book (Fadha'h al-Batiniyyah) and al-Fakhr al-Razi in his book :Asas al-Taqdis).

Keywords: *Hadiths. Ordeals. Interpretation. Extremism. Moderation.*

Article Progress

Received: 30 September 2020
Revised: 15 October 2020
Accepted: 8 December 2020

*Corresponding Author:
Abdul Rahman Hussein, *Fakulti Pengajian Quran dan Sunnah, Universiti Sains Islam Malaysia*
Email:
drabrahman@usim.edu.my

المقدمة

خضعَ تأويل النُّصُوص الدِّينيَّة من القُرآن والسُّـــنَّة لمجموعة من الضَّوابط الدَّقيقة والأُسُس العلميَّة الرَّاسخة التي أرساها علماء الإسلام على مرِّ التاريخ وكانت محلَّ إجماع أهل التَّفسير وشُرّاح السُّنَن، وكانت تلك الضَّوابط والأُسُس بمثابة صمَّام الأمان الذي يضع حدّاً لمحاولات العابثين والمتلاعبين بالنُّصُوص من خلال تأويلها بما يتناسب مع ميولهم السِّياسيَّة أو عقائدهم الفاسدة. ورغم كلِّ ذلك لم يخلُ تاريخٌ من ظهور فتاوى ذات طابعٍ سياسيّ مستلَّة في الأصل من تأويل تعسُّفيّ لبعض الأحاديث، فقد استخدمت الفرق السِّياسيَّة المتحاربة منذ العصر الأمويّ الأحاديث النَّبويَّة المتعلِّقة ببعض الأحداث الغيبيَّة والسَّابقة على قيام السَّاعة لخدمة أهدافها وكسب المزيد من الأنصار والطَّعن في شرعيَّة الخُصُوم كالأحاديث التي دارت حول الفئة الباغية والمختار الثَّقفي والحجَّاج وغيرها، واليوم كَثُرت الفرق السِّياسيَّة والجماعات المسلَّحة التي تدَّعي احتكار المعرفة والعلم وتضعُ شعارات برَّاقة لخداع أتباعها

وإغراء الشَّباب الذين لا علم لهم للانضمام إلى صفوفها لإنشاء خلافةٍ إسلاميَّة وهميَّة ودولة إسلاميَّة لا تتمسَّك بالعُروة الوثقى وحبل الله المتين ولا تقيمُ وزناً واحتراماً لعلماء الإسلام الأجلَّاء وتضربُ بمؤلَّفاتهم الفقهيَّة والتَّفسيريَّة عرض الحائط! وأصبحت الأبوابُ الخاصَّة بالفتن والملاحم وأشراط السَّاعة، والمصنَّفة في الصِّحاح والسُّنَن وغيرها، مرجعاً مهمّاً للجماعات المسلَّحة التي تحارب بعضها بعضاً باسم الإسلام.

المبحث الأول: اختلاف الصحابة رضوان الله عليهم في تأويل أحاديث الفتن

أُولَّتْ بعضُ أحاديث الفتن تأويلاتٍ متضاربة في زمن الصَّحابة رضوانُ الله عليهم وهم أقربُ النَّاس إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وظهرت أوَّل ما ظهرت هذه التَّأويلات في حياته عليه الصَّلاة والسَّلام، وعَظُمَ أمرُها بعد وفاته واتَّخذت منحى مختلفاً حينها، فلـمَّا كان الرَّسول بين ظهرانيهم كان الوحي مرجعيَّة قاطعةً وحُجَّة دامغة، فإنِ اختلفوا رجعوا إليه فإنْ سَكَتَ عنهم سكتوا، أمَّا بعد رحيله عليه الصَّلاة والسَّلام صارَ التَّأويل المتحرِّر منْ مرجعيَّة الوحي مستنداً شرعيّاً لقضايا سياسيَّة وعسكريَّة. وعلَّة الاختلافِ أنَّ أحاديث الفتن متعلِّقةٌ بأمور غيبيَّة لا يعلمُ حقيقة أمرها إلا اللهُ سُبحانه وتَعَالى.

وعرضُ اختلافات الصَّحابة يعيننا على تعقُّب مسار تأويل أحاديث الفتن تاريخيّاً، ويشكِّل خطوةً صائبة لتمييز البشريِّ عن المعصوم في حياة الصَّحابة الكرام وإدراكهم للنُّصُوص الدِّينيَّة، ويضعُ النِّقاط على الحروف فيما يخصُّ إلحاقُ نخبةٍ مخصوصةٍ من الأحاديث بوقائعَ تاريخيَّة تبدو في ظاهرها تجلِّيات حتميَّة لمتون أحاديث الفتن، ويزيحُ السِّتار كذلك عن وضع أحاديثَ للفتن واكَبَت تلك الأحداث في مسعى سياسيّ لشرعنة الحروب وسفك الدِّماء.

ومن الأحاديث التي اختلفَ فيها فهمُ الصَّحابة في حياة الرَّسول صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حديثُ ابن الصَّائد أو ابن الصَّـيَّاد، الذي كان يهوديّاً وقيل كان أنصاريّاً أسلم واسمه صافي، فكان عبد الله بنُ عمر رضي الله عنه يرى فيه المسيحَ الدَّجَّال لشبهٍ بينهما في العين الطَّافية وزمزمةٍ تصدُرُ عنه كهانةً وسحراً، وروى البخاريّ أنَّ عمرَ بن الخطاب رضي اللهُ عنه حلف أنَّه الدَّجَّال وتبعه في ذلك جابرُ بن عبد الله عنْ محمَّد بن المنكدر، فيما رواهُ البخاريّ، قال: " رَأَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَحْلِفُ بِاللَّهِ أَنَّ ابْنَ

الصَّائِدِ الدَّجَّال . قُلْتُ: تَحْلِفُ بِاللَّهِ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَلَمْ يُنْكِرْهُ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ."وقدِ التبسَ أمرُهُ على الصَّحابة الكرام خاصَّةً وأنَّ النَّبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يحسم القول فيه، وإنَّما نهى عمرَ عن قتله: حَدَّثَنَا عَبْدَانُ أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ عَنْ يُونُسَ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مَعَ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فِي رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيَّادٍ حَتَّى وَجَدُوهُ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغَالَةَ وَقَدْ قَارَبَ ابْنُ صَيَّادٍ الْحُلُمَ فَلَمْ يَشْعُرْ حَتَّى ضَرَبَ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ لابْنِ صَيَّادٍ تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ابْنُ صَيَّادٍ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الأُمِّيِّينَ فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ لِلنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَرَفَضَهُ وَقَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ فَقَالَ لَهُ مَاذَا تَرَى قَالَ ابْنُ صَيَّادٍ يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ فَقَالَ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا فَقَالَ ابْنُ صَيَّادٍ هُوَ الدُّخُّ فَقَالَ اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ فَقَالَ النَّبِيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِه."

وقد دَفَعَ هذا الدَّجَّال عن نفسه تهمةَ أنَّه المسيح الدَّجَّال بحججٍ: أنَّ الدَّجَّال كافرٌ وهو مسلم، وأنَّ الدَّجَّال لا ذريةَ له وهو قد أنجب، وأنَّ الدَّجَّال لا يدخلُ مكَّةَ والمدينة وهو قد دخلهما فزادَ أمرُهُ غموضاً حتَّى أنَّ أبا سعيد الخدريّ كاد أنْ يعذُرَه:!!

عن أبي سعيد الخدريّ رضي اللهُ عنه قال: "خَرَجْنَا حُجَّاجًا أَوْ عُمَّارًا وَمَعَنَا ابْنُ صَائِدٍ، قَالَ: فَنَزَلْنَا مَنْزِلا فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَبَقِيتُ أَنَا وَهُوَ ، فَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ وَحْشَةً شَدِيدَةً مِمَّا يُقَالُ عَلَيْهِ، قَالَ: وَجَاءَ بِمَتَاعِهِ فَوَضَعَهُ مَعَ مَتَاعِي. فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ؛ فَلَوْ وَضَعْتَهُ تَحْتَ تِلْكَ الشَّجَرَةِ. قَالَ: فَفَعَلَ. قَالَ: فَرُفِعَتْ لَنَا غَنَمٌ فَانْطَلَقَ فَجَاءَ بِعُسٍّ – قدح كبير – فَقَالَ: اشْرَبْ أَبَا سَعِيدٍ، فَقُلْتُ: إِنَّ الْحَرَّ شَدِيدٌ وَاللَّبَنُ حَارٌّ – مَا بِي إِلا أَنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَشْرَبَ عَنْ يَدِهِ أَوْ قَالَ آخُذَ عَنْ يَدِهِ – فَقَالَ: أَبَا سَعِيدٍ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آخُذَ حَبْلًا فَأُعَلِّقَهُ بِشَجَرَةٍ ثُمَّ أَخْتَنِقَ مِمَّا يَقُولُ لِي النَّاسُ، يَا أَبَا سَعِيدٍ مَنْ خَفِيَ عَلَيْهِ حَدِيثُ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَلَسْتَ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هُوَ كَافِرٌ وَأَنَا مُسْلِمٌ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ

اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هُوَ عَقِيمٌ لا يُولَدُ لَهُ وَقَدْ تَرَكْتُ وَلَدِي بِالْمَدِينَةِ؟ أَوَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَدْخُلُ الْمَدِينَةَ وَلا مَكَّةَ وَقَدْ أَقْبَلْتُ مِنْ الْمَدِينَةِ وَأَنَا أُرِيدُ مَكَّةَ؟ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: حَتَّى كِدْتُ أَنْ أَعْذِرَه، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ مَوْلِدَهُ وَأَيْنَ هُوَ الآنَ. قَالَ: قُلْتُ لَهُ تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ". وقال ابن صياد في رواية: "أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ. وَقِيلَ لَهُ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ. "

فالاختلافُ في أمر ابنِ الصَّـيَّاد درسٌ لكلِّ منْ رأى نفسه أهلاً لتأويل أحاديث الفتن وزعمَ احتكار فهمها، ولعلَّ النَّـبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ترك أمرَ ابن الصَّـيَّاد سرّاً من الأسرار حتَّى يتوقَّف الصَّحابةُ ومنْ تبعهم في كلِّ أمرٍ مثله، ولا يسارعوا إلى اتِّخاذ قرارٍ قدْ يُورثُ ندماً وحسرة، وأبرزُ النِّقاط التي يمكن استخلاصُها من حديث ابن الصَّـيَّاد:

1. يجوزُ تأويل الأحاديث ولو كانت في مسألةٍ غيبيَّة.
2. لا يمكنُ حسم القول في تأويلٍ دون آخر، فهي اجتهاداتٌ بشريَّة لها نصيبٌ من الصِّحة وقد يعتريها الخطأ خاصَّةً إذا لم يحسمِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قولاً في تأويلها.
3. لا ينبغي اتِّخاذ أحكامٍ وقرارات بناءً على تأويل أحاديث الغيب وإلا لكان عمرُ الفاروق أوَّلّ من قتل ابن الصَّـيَّاد، أو كان ابنُ عمر أو جابر مَنْ يعمَدُ إلى هذا، ولكن توقُّف الصَّحابة في أمر ابن الصَّـيَّاد يعني أنَّ الأقاويل في بيان حقيقة أمره لا ترتقي إلى درجة اليقين ومن ثَمَّ إصدار الأحكام. ولا يخفى على اللبيب أنَّ الصَّحابة الذين همُّوا بقتل ابنِ الصَّـيَّاد لم تغب عنهم حقائق متعلِّقة بالدَّجَّال تمَّ بيانها منَ النَّـبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من قبيل مقتله على يَدِ عيسى بنِ مريم، فعمرُ بن الخطاب رضي اللهُ عنه، في حادثةٍ تاريخيَّة معروفة، أسكتَ بعصبيَّةٍ الذين أعلنوا وفاةَ النَّـبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بل وهدَّد بقطع رقابهم، وذلك مِنْ هَولِ المصيبة وطُغيان الحزن والجزع، وعمرُ آمنَ ببشريَّة الرَّسول وحَفِظَ الآيات المتعلِّقة بموته كذلك بيدَ أنَّ قسوة حُضُور الموت أبعدت لهنيهةٍ حقيقة ملاقاته للأنبياء وهم أكرمُ خلق الله!! وابن الصَّـيَّاد، مع كونه دجَّالاً صغيراً إلى جانب المسيح الدَّجَّال، أثارَ الشُّكُوك مِنْ حوله، وهيَّج غضبَ الصَّحابة عليه لقُربِ عهدهم بحديث الدَّجَّال!

وإذا كانت مسألةُ تأويل أحاديث الفتن بهذه الصُّورة مع الصَّحابة على جلالة قدرهم: الاجتهادُ ثُمَّ التَّوقُّف، اتِّخاذُ شِبْه قرارٍ نظرياً وتعليقُ الأمر في تنفيذه عمليّاً، التَّحسُّبُ من الوقوع في الظَّنِّ القاتل والتَّورُّع الشَّديد عن الوقوع في الظُّلم.... فكيفَ ينبغي بمَنْ هم دونهم بمراحل في العلم والورع والحزم والتَّعقُّل؟ إنَّ حديث ابنِ الصَّـيَّاد درسٌ لكلِّ الأجيال المتطلِّعة إلى قراءة صفحاتٍ غائمة من علم الغيب والإدلاءِ بدلو في بحر التَّأويل، وعبرةٌ لأولي الأبصار والبصائر.

المبحث الثاني: التأويلات السياسية المعاصرة والمتطرفة لأحاديث الفتن

أولاً: حديثُ مَرْجِ دَابِق

روى الإمام مسلم وغيره: حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ، حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَاللهِ لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ، وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ، فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ ."

ودابق سهلٌ قريب من الحُدُود التُّركيَّة السُّوريَّة، وقال الإمامُ النَّوويّ إنَّ الأعماقَ ودابق موضعان بالشَّام بقرب حلب، ومقصده مِنَ الشَّام هنا بلادُ الشَّام لا مدينةَ دمشق كما يفهمُ العَوَامُّ مِنَ الخلقِ اليوم، وموضعُ الأعماق يقعُ ضمن الأراضي التُّركيَّة اليوم، أمَّا دابق فتقعُ شمال حلب بالقُربِ مِنَ الحُدُود التُّركيَّة، وقدْ تيمَّنَ الخليفةُ الأمويّ سُليمانُ بنُ عبد الملك بفتح القسطنطينيَّة بالانطلاق منه وقوفاً عند تأويلاتِ بعضِ أهل الحديث فأرسلَ أخاه مَسْلَمَة، وخابَ ظنُّهُ فعادَ إلى اهتمامه بالطَّعام والموائد، ودُفِنَ هناك مع آماله وأحلامه!

وقد تمسَّك بهذا الحديث أصحاب القاعدة في العراق، وكانوا يزعُمُون أنَّ زعيمهم هو القائد المنتظر الذي سيغلبُ الجُيُوشَ الأمريكيَّة وحلفائها (الرُّوم) في مرج دابق! وتابعهم أصحاب الدَّولة الإسلاميَّة في التَّوكيد على أهميَّة مرج دابق، فبعد الانتصار سينطلقون الانطلاقة الكُبرى حيث يهزمون جُيُوشَ المسيح الدَّجَّال!

ولم يكن اختيارُ هذا السَّهل عبثيّاً، فقد كانت القُوَّاتُ الأمريكيَّة متمركزةً في العراق، وكانت قاعدتها في الأراضي التُّركيَّة (أنجرليك) تشكِّلُ خطَّ حمايةٍ وإمداد لقوَّاتها المنتشرة هناك، وبعد انهزام التَّنظيم التجأ مقاتلوا التَّنظيمات المسلَّحة مِنْ جبهةِ النُّصرة وغيرها إلى منطقة إدلب، وتحصَّنوا بها ظانّين أنَّ قداستها المنبثقةَ عن قداسة الحديثِ ستمنعُهُم كما أنَّ قداسة مكَّة منعت جيش أبرهةَ الحبشيّ من الاقتراب مِنَ الحرم المكّيّ، فتوجَّه الآلافُ من مقاتلي التَّنظيم مع أُسَرهم إلى تلك البقعة، وتوزَّعوا بين ثلاثة ملايين مدنيّ منتظرين المعركةَ الكُبرى.

ولكنهم لم يعتبروا بالدُّرُوس التَّاريخيَّة، فقد كان إيمانُهُم راسخاً بمعركة سهلِ دابق الحاسمة على الرَّغم من أنَّ كُلَّ الأحداثِ كانت تسيرُ عكس عقارب ساعة القيامة التي صمَّمها الوقَّاتون الكبار، فتقلُّصُ مساحةِ خلافتهم في فترةٍ زمنيةٍ قصيرة كان مؤشِّراً على فساد التَّأويلات التي بشَّر بها الوقَّاتون السُّذَّج، وكراهية التَّجمُّعات السُّـنِّيَّة لحكومتهم القاسية كان مؤشِّراً آخرَ على فشل تنظيمهم في تحقيق العدالة المصاحبة لقيام الخلافةِ الكونيَّة التي نصَّت عليها الأحاديثُ الصَّحيحة بوضوحٍ لا لَبْسَ فيه، وذلك لأنهم نفَّذوا أحكاماً ميدانيَّة تميَّزت بالقسوة والرُّعب والتَّجبُّر ما أضعفَ ثقة المدنيين البُسَطاء بمبادئهم السَّامية ووعودهُمُ البرَّاقة، وسَرعان ما انفرطَ عِقْدُ العصابات العشائريَّة الموالية لهم، وانقلبت في ليلةٍ وضُحَاها إلى صُفُوف التَّحالُف الذي تقودُهُ أمريكا.

ثانياً: أحاديثُ فضلِ الجماعاتِ المُسلَّحة في بلادِ الشَّام

ومِنَ الأحاديثِ التي كَثُرَ الاستشهادُ بها وصارت مرجعاً خطيراً للجماعاتِ التَّكفيريَّة حديثٌ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا . قَالُوا:

وَفِي نَجْدِنَا ؟ قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَأْمِنَا وفِي يَمَنِنَا . قَالُوا : وَفِي نَجْدِنَا ؟ قَالَ : هُنَاكَ الزَّلاَزِلُ وَالْفِتَنُ ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ) .

ووجهُ الخُطُورةِ هو عمليَّةُ الاستقطاب التي نراها اليوم للسُّذَّج والمغترّ بهم مِنْ أجل الالتحاق بالجماعاتِ المسلَّحة في بلاد الشَّام، إذ يجعلون المرادَ مِنَ الحديث بُقعَةً جُغرافيَّةً نزلوا بها وتحصَّنُوا بها، ومعلومٌ أنَّ الأماكن تتفاضَلُ كأفضليَّة مكَّة والمدينة وبيت المقدس وغيرها، ولكنَّ الأفضليَّة المقصودة في بلاد الشَّام لا تعني أنَّ كُلَّ مَنْ فيها أخيار، فالخيريَّةُ تصدقُ على البعض دون الآخرين كما أنَّ الشَّرَّ في نجدٍ لا يعني شرّاً ملازماً لها كُلَّ زمانٍ، ولا يعني كذلك أنَّ جميع أهلَ نجدٍ مِنَ الأشرار فالواقعُ يشهدُ بضدِّ ذلك، وقرنُ الشَّيطان سرٌّ من الأسرار لا يعلمُ أحدٌ متى يظهرُ ومتى يظهرُ أهلُهُ!

وعلى الرَّغم من أنَّ علماء الإسلام أكَّدوا هذه المعاني بيدَ أنَّ طوائفَ المغرَّر بهم ممَّن لا يقرأون ولا يسمعون إلا لمن يغذِّي أحلامهم توجَّهوا إلى بلاد الشَّام والتحقوا بركبِ المقاتلين هناك معتقدين أنَّهم خيرةُ النَّاس وفي خيرة الأماكن! وانتهوا إلى قتالِ بعضهم بعضاً بعد أنْ فتكوا بالأبرياء مِنَ المسلمين، وكانت عمدتهم في هذا الإجرام الممنهجِ الحديثُ السَّابق وحديثٌ آخر مِنْ حديث أبي هريرة، رضي اللهُ عنه، أنَّ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا تَزَالُ عِصابَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ علَى أبوابِ دِمَشْقَ ومَا حَوْلَهُ، وعلَى أبوابِ بيتِ المَقْدِسِ ومَا حَوْلَهُ، لا يَضُرُّهُم خِذْلانُ مَن خذَلهم، ظَاهِرِين علَى الحَقِّ إلى أنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ."

وكان هذا الحديثُ مِنْ أقوى الأدلَّة التي استدلَّت بها الجماعاتُ المسلَّحة على عظيم مكانتها وأنَّها على حقٍّ وصواب خاصَّةً وأنَّها استقَّرت حولَ دمشق والغوطة بالتَّحديد رغبةً في كسب المزيد مِنَ الأتباع وصناعةِ ضجَّة إعلاميَّة عن أنفسهم، وفعلاً نجحوا في مآربهم وتدافعَ كثيرٌ مِنَ السُّذَّج إلى تلك الأماكن والتحقوا بالجماعات المسلَّحة هناك، ولم ينفعهم فيما بعدُ اكتشافهم حقيقةَ أمر تلك الجماعات وطبيعةِ الصِّراع السِّياسيّ بينها والإجرام الحاصل مِنْ هذه الحرب الأهليَّة. والحديثُ في نهاية الأمرِ يتحدَّثُ عن علاماتِ السَّاعة التي لا يعلمُ أحدٌ متى تظهر بالتَّحديد، ولكنَّ الذين هرعوا إلى الشَّام وجماعات الشَّام احتقنت صدورهم بآمال قيام السَّاعة سريعاً وتحقُّق معنى الحديث فيهم!

خاتمة البحث

قضيَّةُ تأويلِ الأحاديث في مُنتهى الحساسيَّة والخُطُورة خاصَّةً إذا علمنا أنَّ جيلَ المتشدِّدينَ كانت بضاعتُهُم حفظَ الأحاديث والنَّظرِ في أسانيدها، وهما أمرانِ لا يختلفُ أحدٌ في أهميَّتهما، إلا أنَّ فهمَ المتون وتأويلها بالنَّظرِ في سياقاتها التَّاريخيَّة والجمع بين الأحاديث المتضاربة ومعرفة النَّاسخ مِنَ المنسوخ منها... ففضلُ علمٍ عظيم لم يَرْقَ أحدٌ مِنْ فتيةِ المتشدِّدين إلى معرفة مسالكه وضوابطه، فاتَّبعوا أهواءهم وغرَّتهم طُمُوحاتُهُم السِّياسيَّة، ولم يكن فهمهم القاصرُ لكثيرٍ مِنْ أحاديثِ الفتن سوى معولِ هدمٍ في علمِ التَّأويل وإعمالِ المقاصد.

ولو أنَّهم اتَّبعوا نهجَ الصَّحابةِ الكرام، وهم يزعُمُون أنَّهم على دربِ الصَّحابة حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعل، في تأويلِ أحاديث الفتنِ والعملِ أو عدم العمل بمقتضاه لسلمُوا مِنَ الوقوعِ في شِراك أهواء النَّفس، ولما صاروا إلى ما صاروا إليه مِنَ التِّيه والضَّلال والتَّضليل، والضَّرب على نواقيسِ قيام السَّاعة ظنّاً بالغيب وادِّعاء ما لا يُدرك مِنْ مسائلِ الغيب، ولكنَّ سفهاءَ الأحلامِ غرَّتهم شراذمُ مِنَ الجهلة أسلموا إليهم أموالَهم وأرواحَهم، وغرَّهم بعضُ فضلِ علمٍ لم تنضجْهُ الدِّراسةُ والتَّحقيق في مؤلَّفات أهلِ العلم، ومنعهم كِبْرُهُم وخُيَلاؤُهم مِنَ العودةِ إلى طريق الصَّواب، فجلبوا الدَّمارَ على أنفسهم وعلى مَنْ حولهم مِنَ المسلمين الأبرياء ممَّن لا حولَ لهم ولا طولَ ولا ناقةَ لهم ولا جملٌ في الحُرُوبِ المستَعِرةِ بين فِرَقِهم وعصاباتهم. ولا يظهرُ هؤلاءِ المتشدِّدون في صَفَحاتِ التَّاريخ إلا عندما يعصِفُ الشِّقاقُ والصِّراعُ المسلمين فرقاً ومذاهبَ ولا يجدونَ حاكماً عادلاً ينصفُهُم مِنْ أنفسهم، ولا وحدةَ صفٍّ لأبناءِ الأمَّة تقيهم مصارعَ الهلاك، فينشطُ غلمانُ التَّشدُّد على غفلةٍ مِنْ علماءِ الأمَّة ويزيدون الطِّينَ بِلَّةً ويبيحون الدِّماء ثُمَّ لا يلبثون أنْ تضعفَ شوكتُهُم وتختفي عصائبُهُم ولا يحفظُ لهُمُ التَّاريخ سوى الجهالةِ والإفساد.

المراجع:

1. Al-Bukhari. Muhammad bin Ismail. 1422H. Sahih al-Bukhari. Dar al-Thuq al-Najah.
2. Ahmad bin Hanbal. 1416H. Al-Musnad. Cairo: Dar al-Hadith.
3. Al-Baghawi. Muhammad bin al-Farra'. 1403H. Syarah al-Sunnah. Beirut: Al-Maktab al-Islami.
4. Muslim bin al-Hajjaj. Sahih Muslim. Beirut: Dar Ihya' al-Turath.
5. Al-Dani. Uthman bin Sa'id. 1416H. Al-Sunan al-Waridah fi al-Fitan wa Ghawailuha wa al-Sa'ah wa Asyratuha. Riyadh: Dar al-'Asimah.
6. Ibn al-Hibban. Muhaamd bin Ma'bad al-Tamimi. 1414H. Sahih Ibn Hibban. Beirut: Muassasah al-Risalah.
7. Al-Baihaqi. Abu Bakr bin Ali. 1421H. Al-Qadha wa al-Qadar. Riyadh: Makatabah al-'Abikan.
8. Al-Tirmizi. Abu 'Isa Muhammad bin Saurah. 1998. Sunan al-Tirmizi. Beirut: Dar al-Gharb al-Islamiy.